مدى انتشار الكتابة في حواضر الحجاز

عند ظهور الإسلام

إعداد

أ.د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي

قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

قبل الشروع في بحث معرفة انتشار الكتابة في جزيرة العرب عند ظهور الإسلام ينبغي علينا الإجابة عن السؤال الآتي: متى وكيف عرفت الجزيرة العربية الكتابة التي ما زال الناس يكتبون بها في البلاد العربية وبعض البلاد الإسلامية؟

لدينا مصدران للإجابة عن هذا السؤال، الأول: يتمثل في الروايات التي تحفظها المصادر الإسلامية، والآخر: في الدراسات الحديثة المعتمدة على النقوش المكتشفة منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

أما الروايات الإسلامية فهي متباينة في رواتها ومضمونها، وهي:

١. أول من وضع الكتابة العربية إسماعيل u على لفظه ومنطقه، فعلمه موصولًا حتى فرق بينه ولده[١].

٢. وتذكر الرواية الثانية أن: «أول من وضع الكتاب العربي قومٌ من الأوائل نزلوا في عدنان بن أد بن أدد، أسماؤهم: أبجد، وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشت، فوضعوا الكتاب العربي على أسمائهم، ووجدوا حروفًا ليست من أسمائهم، وهي الثاء والخاء والذال والظاء والضاد

(١) الصولي، محمد بن يحيى (ت ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)، أدب الكتاب، تحقيق محمد بهجة الأثري، دار الباز للطباعة والنشر (لم يذكر مكان النشر ولا تاريخه)، ص٢٨؛ الماوردي، محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٤، (١٣٩٨هـ/ ١٩٨٧م)، ص٦٨؛ ابن عبدالبر، يوسف بن عبدالله (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم، تحقيق إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص٢٦؛ العسكري (أبوهلال)، الحسن بن عبدالله (ت ٣٨٢هـ/ ٩٩٣م)، الأوائل، (جزآن) تحقيق وليد قصاب ومحمد المصري، الرياض، دار العلوم (د. ت)، ١/ ١٣٣.

والطاء والغين، فسموا بالروادف...»[1].

٣. وتذكر الرواية الثالثة أن: «أول من قدم بالكتاب العربي عبد قصي بن قصي، جاء به من اليمن فتعلمه أهل مكة»[2].

٤. وتذكر الرواية الرابعة أن: «الذي كتب هذا العربي الجزم رجلٌ من بني يخلد بن النضر بن كنانة، فكتبتْ حينئذٍ العرب»[3].

٥. أمَّا الرواية الخامسة فهي أشهر الروايات، وحَفِظها عددٌ من المصادر وتنوعت أسانيدها، واختلفت نصوصها بين الإيجاز والتفصيل، وبينها بعض الفروق في الألفاظ، وأوفاها تلك التي حفظها البلاذري (ت. ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) وعزاها إلى محمد بن السائب الكلبي (ت. ١٤٦هـ/ ٧٦٣م) والشرقي القطامي (عاش في القرن الثاني الهجري)، ونصُّها: «اجتمع ثلاثةُ نفرٍ من طيِّئ ببقة، وهم: مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه قومٌ من أهل الأنبار، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار، وكان بشر بن عبدالملك، أخو أكيدر بن عبدالملك بن عبدالجن

(١) الصولي: المصدر السابق، ص٢٩؛ ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، كتاب الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران (الناشر: المحقق، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ص٧. ورسم الألفاظ عنده يختلف قليلًا عن رسمها عند الصولي. الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص٦٨؛ الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م)، حكمة الإشراق (من ضمن المخطوطات النادرة)، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، ٢/ ٦٤.

(٢) ابن عبدالبر، القصد والأمم، ص٣٣.

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص٨.

الكندي ثم السكوني صاحب دومة الجندل، يأتي الحيرة فيقيم بها الحين، وكان نصرانيًّا، فتعلم بشرٌ الخط العربي من أهل الحيرة، ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب، فسألاه أن يعلمهما الخط، ثم أراهما الخط فكتبا، ثمَّ إنَّ بِشرًا وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلم الخط منهم، وفارقهم بشرٌ ومضى إلى ديار مُضَر فتعلم الخط منه عمر بن زُرارة بن عدس، فسمي عمرو الكاتب. ثم أتى بشرٌ الشام فتعلم الخط منه ناسٌ هناك، وتعلم الخط من الثلاثة الطائيِّين أيضًا رجلٌ من طابخة كلب فعلَّمه رجلًا من أهل وادي القرى، فأتى الوادي يتردَّد، فأقام بها وعلم الخط قومًا من أهلها»[1].

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٤٥٦. وانظر أيضًا: ابن أبي شيبة، عبدالله بن محمد (ت ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م)، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق مختار أحمد الندوي، بومباي، الدار السلفية، ط١، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ١٤/ ٩٠؛ الفاكهي، محمد بن إسحاق (ت بعد ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م)، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، (٦ أجزاء)، تحقيق عبدالملك بن دهيش، مكة المكرمة، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ط٧، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٨م)، ٣/ ٢١٤؛ ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة، دار المعارف، ط٤، ص٥٥٢؛ ابن حبيب، محمد (ت ٢٤٥هـ م ٨٥٩م)، المحبر، تحقيق إيلزه ليختن شتيتر، بيروت، دار الآفاق الجديدة (د. ت)، ص٤٥٧؛ ابن النديم، ص٧؛ ابن رسته، أحمد بن عمر (ت بعد ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م)، كتاب الأعلاق النفيسة، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٧م، ص٢١٦؛ العسكري، الأوائل، ١/ ١٣٣؛ ابن دريد، محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ/ ٩٩٣م)، كتاب الاشتقاق، تحقيق عبدالسلام هارون، بيروت، دار المسيرة، ط٢، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ص٣٧٢. ويضيف: أن بشر بن عبدالملك «خرج إلى مكة فتزوج الضهياء=

٦. أما الرواية السادسة فتذكر أنّ: «أول من قدم بكتاب العربية إلى مكة على قريش حرب بن أمية»(١).

٧. وتقول الرواية السابعة: إن «أول من أدخل الكتاب العربي بمكة عمرو بن العاص، وجاء به من الحيرة»(٢).

ويلحظ على الروايات السابقة عدة أمور؛ فأولها: تنسب وضع الكتابة إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وفي هذا محاولة للربط بين بدء الكتابة زمنًا بإسماعيل عليه السلام، ومكانًا بمكة لأنه كان يقيم بها، ولكن معظم المصادر لم تحفل بهذه الرواية كثيرًا، ربما كان ذلك لعدم قناعة مؤلفيها بصحتها، وأحد المؤلفين الذين ذكروها ينفي صحَّتها، وهو أبو هلال العسكري (ت. ٣٨٢هـ/ ٩٩٣م) حيث قال: «أول من وضع الكتاب العربي قالوا: إسماعيل u، والصحيح عند أهل العلم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة ...»(٣).

أما الرواية الثانية فهي غامضة وتعكس غموض نشأة الكتابة العربية، وكذلك الأمر بالنسبة للرواية الثالثة، بل إنها مستبعدة كليًّا، ومثلها الرواية السابعة.

على أنّ الأمر بالنسبة للرواية الخامسة مختلف بعض الشيء، ونظن أن الرواية السادسة في الأصل جزءٌ من الرواية الخامسة، أدخل عليها بعض

= بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب، وعلم أبا سفيان هذا الخط ورجالًا من أهل مكة». ابن حزم، علي بن أحمد (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، جمهرة أنساب العرب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص٤٢٩؛ الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص٦٨.

(١) ابن عبدالبر، القصد والأمم، ص٣٢.

(٢) الفاكهي، أخبار مكة، ٣/ ٢١٤.

(٣) العسكري، الأوائل، ١/ ١٣٣.

التحريف. أما مضمون الرواية الخامسة – وهو أن بشر بن عبدالملك السكوني أول من أدخل الخط العربي إلى مكة – فمرفوض، ولكننا مع ذلك نعتقد أنّ الرواية تحمل ظلالًا من الحقيقة تتمثل في أنّ الخط نشأ في شمالي الجزيرة العربية، وربما نشأ في الأنبار أو غيرها، ثم انتقل إلى داخلها، وهذا ما تذهب إليه الدراسات الحديثة المعتمدة على النقوش.

ومن المحتمل جدًّا أنّ بشر بن عبدالملك كان يعرف الكتابة ووفد إلى مكة وأسهم في تعليم بعض الأفراد من أهلها، لكنه من المؤكد أنه لم يكن أول من أدخل الكتابة إلى مكة؛ لأن بشرًا عاش في زمن الرسالة، أو عند ظهور الإسلام، ولدينا أدلة كثيرة تؤيِّد انتشار الكتابة في مكة وفي غيرها من مناطق الجزيرة العربية قبيل هذه المدة الزمنية. ولا نستطيع القطع بصحة ما لدينا من أدلة، ولكنها عندما تتضافر توجِد القناعة بوجود الكتابة بمكة منذ زمن مبكِّر نسبيًّا، وإن كان بعض الأدلة ممَّا لا تطمئن إليه النفس.

وأقدم زمن يرِد فيه ذِكر للكتابة هو زمن عمرو بن لُحَيّ الخُزاعي، ويظهر أنه في العهد الذي كانت قبيلة خزاعة تسيطر فيه على مكة قبل أن تتغلب عليها قبيلة قريش وتستولي على مكة (٤٠٠–٤٥٠م)[1]، حيث يُذكر أنّ عمر بن لُحَيّ الخُزاعي «هو الذي جاء بهُبَل من أرض الجزيرة (الفراتية) فجعله في الكعبة، وجعل عنده سبعة أقداح يتقاسمون بها، في كلِّ قدح كتابٌ يعملون بما يخرج فيه، فإذا أراد الرجل أمرًا أو سفرًا أخرج منه قدحين في أحدهما مكتوب: أمرني ربِّي، وفي الآخر: نهاني، ثم يضرب بهما ومعهما قدح غُفْل، فإن خرج الناهي

(1) Ibrahim, M., Merchant Capital and Islam, Austin, Univ. of Texas, Press, 1990, p.38.

جلس، وإن خرج الآمر مضى، وإن خرج الغُفل أعاد الضرب حتى يخرج إمَّا الناهي وإمّا الآمر، والباقي من القداح سبعة مكتوب عليها، منها قدح مكتوب عليه: العَقْل، وقدح فيه: نعم، وقدح فيه: لا، وقدح فيه: منكم، وقدح فيه: من غيركم، وقدح فيه: مُلْصَق، وقدح فيه: المياه، إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا القداح وفيه ذلك القدح، فحيثما خرج علموا به، فإذا أرادوا أن يختنوا غلامًا أو يُنْكِحُوا أيِّمًا أو يدفنوا ميتًا ذهبوا إلى هُبل بمئة درهم وجزور ثم قالوا لغاضرة بن حبشية بن سلول... الخزاعي، وكانت القداح إليه، فقالوا: هذه مئة درهم وجزور، لقد أردنا كذا وكذا فاضرب لنا على فلان بن فلان ...»[١].

والكتابة الواردة في هذا النص لم تحدَّد بالكتابة العربية أو غيرها، ولكن بحكم أن هذه الممارسة ظلت حتى ظهور الإسلام وحَرَّمها القرآن الكريم بالآية: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾[٢]، فلا بد أنها كانت بالعربية.

---

(١) ابن هشام، محمد بن عبدالملك (ت ٢١٣هـ/ ٨٢٨م)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، بيروت، دار الكنوز الأدبية (د. ت)، ١/ ١٥٢؛ الأزرقي، محمد بن عبدالله (ت ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس، بيروت، دار الأندلس (د. ت)، ١/ ١٩٣؛ ابن الكلبي، هشام بن محمد (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، (١٣١١م)، القاهرة، المطبعة الأميرية، (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، ص٢٨؛ ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، (د. ت)، ١٢/ ٤٧٨ (قسم)؛ هارون، عبدالسلام محمد، الميسر والأزلام، القاهرة، مكتبة السنة، ط٣، ١٩٨٧م، ص٦٧. وقارن: اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، دار بيروت للطباعة والنشر، (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ١/ ٢٥٩: «... وكانت القداح سبعة؛ فواحد عليه: الله عز وجل، والآخر: لكم، والآخر: عليكم، والآخر: منكم ...».

(٢) سورة المائدة، الآية ٣.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن هاشم بن عبد مناف أقنع ملك الروم قيصر أن يكتب له كتاب أمانٍ يؤمِّن فيه تجار قريش الذين يَقْدَمُون إلى الشام، وهو ما يُسمَّى بالإيلاف[1]، ولم تُشر المصادرُ إلى لغة الكتاب، ولكننا نفترض أنه كان بالعربية؛ لأنّ العرب لن يعرفوا ما فيه لو كُتب باليونانية، أو على الأقل أنه كان بلغتين بالعربية واليونانية ليفهمه العرب وموظفو الحدود من البيزنطيين.

كما تشير المصادر إلى أنّ مكيًّا آخر هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى ذهب إلى الشام وتنصَّر، وبعضُها يذكر أنه اتصل بالإمبراطور البيزنطي، وبعضها الآخر يذكر أنه اتصل بحاكم الشام الغسَّاني ابن جفنة، وما يهمُّنا في هذا الصدد هو الكتابة، إذ إنّ عثمان سأله أن يملِّكه على قريش وقال: «أَحْمِلُهم على دينك، فيدخلون في طاعتك»، ففعل وكتب له عهدًا وختمه بالذهب، فهابت قريشٌ قيصر وهمُّوا أن يَدِينوا له...»[2].

ويرتبط اسمُ عبدالمطلب بن هاشم جدِّ الرسول ﷺ بعددٍ من المناسبات التي يَرِدُ فيها ذِكر الكتابة، منها: «... وثب نوفل بن عبدمناف على أركاحٍ كانت لعبدالمطلب - وهي الساحاتُ والأفنية - فغلب عليها، واغتصبه إياها، فاضطرب عبدالمطلب لذلك، واستنهض قومه معه فلم ينهض كبير أحد منهم،

(١) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد، عالم الكتب، ط١، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص٤١؛ اليعقوبي، ١/ ٢٤٢، ٢٤٤؛ القالي، إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، كتاب ذيل الأمالي والنوادر، بيروت، دار الآفاق الجديدة (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ص٩٩.

(٢) الزبيري، مصعب بن عبدالله (ت ٢٣٦هـ/ ٨٥١م)، كتاب نسب قريش، تحقيق أ. ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، ط٢، (د. ت)، ص٢١٠؛ ابن حبيب، المنمق، ص١٥٤. وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٢٢٤.

فكتب إلى أخواله من بني النجار من الخزرج...»[١]. وما يهمُّنا هو ذكر الكتابة في هذا النصِّ، سواءٌ كتب عبدالمطلب نفسه أم كتب له غيره.

وتذكر المصادرُ أنّ قبيلة خزاعة دعت عبدالمطلب بعد نجاحه باسترداد حقه إلى أن يعقد معها حلفًا، فأجاب إلى ذلك، فدخلوا دار الندوة وكتبوا بينهم كتابًا، فلمَّا فرغوا من الكتاب علقوه في جوف الكعبة، وكان الذي كتبه لهم أبو قيس بن عبد مَناف بن زُهرة بن كِلاب، وتحفَظ المصادرُ نصوصًا لهذا الحلف[٢].

ويروي ابنُ إسحاق روايةً عن عبدالمطلب وأبدى تحفُّظًا في صحَّتها، ونصُّها: «وكان عبدُالمطلب - فيما يزعُمون والله أعلم - قد نذرَ حين لقيَ من قريشٍ ما لقي عند حفر زمزم: لئن وُلِدَ له عشرةٌ ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرنَّ أحدَهُم عند الكعبة، فلمَّا توافى بنوه عشرةً، وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخُذ كلُّ رجل منكم قَدَحًا ثم يكتب فيه اسمَه ثم ائتوني ...»[٣]. وما يهمُّنا من هذا النصِّ هو ذِكر الكتابة إن

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، القاهرة، دار المعارف، ١/ ٦٩؛ الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، تاريخ الرسائل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط٤، ٢/ ٢٥٠.

(٢) ابن حبيب، المنمق، ص٨٧؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ٧٠-٧٢؛ الطبري، تاريخ، ٢/ ٢٥١. وانظر أيضًا نص الحلف عند الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، المغازي، تحقيق كارسون جونز، بيروت، عالم الكتب، (د. ت)، ٢/ ٧٨١.

(٣) ابن هشام، السيرة، ١/ ١٥١-١٥٢.

كان موثوقًا، سواءٌ كان أبناؤه العشرة يعرفون الكتابة أم يُكتَب لهم.

أمّـا ياقوت فيحفظ أيضًا نصًّا آخر عن الكتابة يرتبط بعبدالمطلب: «قال ابن خالويه: الزول: اسـمُ مكانٍ باليمن، وجد بخط عبدالمطلب بن هشـام: وإنهم وصلوا إلى زول صنعاء. قال: وكان علي بن عيسى يتعجَّب من هذا ويقول: ما عرفنا أنّ عبدالمطلب كان يكتُب إلّا من هذا الحديث ...»[1].

ويحفـظ المؤرِّخ المكي الأزرقـي (ت ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م) نصًّا يؤيد انتشـار الكتابة، لا في مجتمع مكة فحسب، بل بين العرب، كما يُبرز عنايتهم بالتواريخ والوثائـق، وهو: «فقد ذكر الله الفيـل وما صنع بأصحابه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ إلـى آخرهـا، ولـو لم ينطـق القرآن به لـكان في الأخبار المتواطئـة والأشـعار المتظاهرة في الجاهلية والإسـلام حجَّةٌ وبيانٌ لشـهرته، ومـا كانت العربُ تؤرِّخ به، فكانوا يؤرِّخون في كتبهم وديونهم من سَـنة الفيل، وفيها وُلد النبيُّ ﷺ، فلم تزل قريشٌ والعربُ بمكةَ جميعًا تؤرِّخ بعام الفيل، ثم أرَّخت ببُنيان الكعبة فلم تزل تؤرِّخ به حتى جاء الله بالإسلام، فأرَّخ المسلمون من عام الهجرة»[2].

ومعروفٌ أن عبدالمطلب بن هاشم كان أكبرَ زعماء مكة إبَّان الغزو الحبشي لمكة بقيادة أبرهة، وقابل أبرهة نيابةً عن أهل مكة[3].

(١) الحمـوي، ياقـوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هــ/ ١٢٢٨م)، معجم البلـدان، بيروت، دار صادر (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) (زول).

(٢) الأزرقي، أخبار مكة، ١/ ١٥٤.

(٣) ابن هشـام، السـيرة، ١/ ٤٩-٥٠؛ البلاذري، أنسـاب الأشـراف، ١/ ٦٧؛ الأزرقي، أخبار مكة، ١/ ١٤٣- ١٤٥.

واجتمعت بعضُ بطون قريش بمكة - وهم بنو هاشم وتَيْم وزُهرة وأسد والحارث بن فِهر - بعد حادثة الفيل بعشرين سنةً، وتعاهدوا على رفع الظلم عن أيِّ مظلوم بمكة، وجمعهم الزعيمُ المكي عبدالله بن جدعان في داره وصنع لهم طعامًا «فتحالفوا بالله قائلين: لا ننقُض هذا الحلف ما بَلَّ بحرٌ صوفةً، وأن لا ندع بمكة مظلومًا... وكان الذي كتبه بينهم الزبير بن عبدالمطلب»، وحضر رسول الله ﷺ الحلف[1]، على أنّ بعض المصادر التي أوردت قصة هذا الحلف لا تشير إلى كتابته[2]، وإن صحَّ أن الزبير بن عبدالمطلب قد كتبه فهذا يعضد الرواية التي سُقناها سابقًا، ونصُّ قول عبدالمطلب لبنيه: «ليأخذ كُلُّ رجلٍ منكم قدحًا ثمَّ يكتب اسمه فيه...».

ويذكُر أَحَد المكيِّين المهتمِّين بالأخبار والأنساب - وهو المسور بن مخرمة (ت ٦٤هـ/ ٦٨٣م) -: «أنّ السَّيل حَسَر بمِنَى عن صخرة بمسجد السرر عند قبر المرأتين، مكتوب فيها: أنا أسيد بن أبي العيص، ترحم الله على عبد مناف، فهذا كانت قريش في الجاهلية»[3]. ويظهر أنّ الجزء الأخير من النصِّ فيه سقط، وأصلُه: فهذا كانت تكتب قريش في الجاهلية، أو: فهذا كانت تفعل قريش في الجاهلية. وأسيد بن أبي العيص هو والد عَتَّاب بن أَسِيد الذي عيَّنه النبيُّ ﷺ واليًا على مكَّة عند فتحها، وظل في هذا المنصب حتى

(١) ابن حبيب، المنمق، ص١٨٦-١٨٩.

(٢) ابن هشام، السيرة، ١/ ١٣٣؛ ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، دار بيروت (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م)، ٢/ ٤١.

(٣) الفاكهي، أخبار مكة، ٤/ ٣٢؛ ابن النديم، الفهرست، ص٨.

قُبض النبيُّ ﷺ[1].

إنّ النصوص التي ذكرناها آنفًا، وأقدمُها عهد إيلاف هاشم بن عبد مناف الذي يعود تاريخه إلى قرابة قرنٍ قبل الإسلام، تعكس معرفة العرب – وبخاصة في مكة – بالكتابة وانتشارها بينهم في زمنٍ أقدم من زمن عبدالملك بن بشر السكوني الذي نَسبَتْ إليه بعضُ المصادر إدخال الكتابة إلى مكة.

أمَّا الدراساتُ الحديثة المتعلقة بنشأة الخط العربي والمعتمِدة على النقوش فتذهب إلى أنه من الثابت أنّ خطَّنا العربي الشمالي مشتقٌّ من الخط النبطي، والأنباط كما تُظهِر أسماء أعلامهم عربٌ من حيث الأصل، ولكنهم خضعوا لسلطان الآراميين الحضاري فغدوا متأثرين بالآرامية إلى حدٍّ بعيد، كما أنهم أخذوا كتابتهم عن الآراميين[2].

ويلخِّص سعد الراشد نتائج الدراسات عن النقوش بالقول: وإذا ما تتبعنا أقدم النقوش العربية المعروفة قبل ظهور الخط العربي فلا نجد غيرَ خمسة نقوش تُعدُّ القاعدةَ الأولى التي بُنيت عليها النظرياتُ والدراسات حول نشوء الخط العربي. وقد تناول الباحثون عربًا كانوا أم غير عرب النقوش المكتشفة منذ أواخر القرن الماضي (١٩م) وأعطوا كثيرًا من الاجتهادات حول صلة هذه النقوش بتطوّر الخط العربي... ومن المفيد الإشارة إلى هذه النقوش على النحو الآتي:

١. نقش أمّ الجمال الأول في جنوب منطقة حوران، الذي يعود تاريخه إلى

(١) المصعب الزبيري، كتاب نسب قريش، ص١٨٧؛ الفاكهي، أخبار مكة، ٤/ ٣٢.

(٢) بعلبكي، رمزي، الكتابة العربية والسامية، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨١م، ص١٢٢.

٢٥٠م.

٢. نقش النمارة، الذي عَثَر عليه العالم الفرنسي دومو في بلدة النمارة من أعمال حوران بالشام، ويعود تاريخه إلى عام (٣٢٨م).

٣. نقش زَبَد التي تقع بين قفرين ونهر الفرات جنوب شرق مدينة حلب، الذي يعود تاريخه إلى عام (٥٦٨م).

٤. نقش حران، وتاريخه عام (٥٦٨م).

٥. نقش أمّ الجمال الثاني الذي عثر عليه في الكنيسة المزدوجة من قبل جامعة برنستون Princeton Univ.، ويعود تاريخه إلى القرن (٦ م).

ونجد من خلال هذه النقوش أنّ الكتابة النبطية انتقلت من صيغتها الآرامية بالتدرج حتى وصلت إلى المرحلة التي اتخذت فيها صفة الكتابة العربية الجاهلية في القرن الخامس الميلادي[١].

ومما لاحظَته سهيلة الجبوري أنه «على الرغم من أن جميع النقوش العربية الجاهلية كانت قد اكتُشفت في الأراضي السورية فهي تلقي الضوء - ولا شك - على ضروب الكتابة العربية التي عُرفت في الأقاليم الأخرى مثل العراق والحجاز، والسبب الذي يدعونا إلى الاعتقاد هو مقارنتها بما وصل إلينا من كتاباتٍ ترجع إلى العصر الإسلامي المبكِّر في مصر وغيرها»[٢]، وتصل إلى

(١) الراشد، سعد، الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، ضمن أبحاث: الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، الرياض، جامعة الملك سعود، (١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م)، ٢/ ١٦٩.

(٢) الجبوري، سهيل ياسين، أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، بغداد، مطبعة الديب، ١٩٧٧م، ص٦٠.

النتيجة: «ومن دراستنا للكتابات الإسلامية التي ترجع للفترة الزمنية الواقعة بين سنتي (٢٠-٤٠هـ/ ٦٤٠-٦٦٠م) ثم مقارنتها بالكتابات العربية الجاهلية يتبيَّن بوضوح أن معظم الحروف العربية الإسلامية هي نفسُها التي كانت معروفةً في الجاهلية ...»(١).

أمّا متى وكيف انتقلت الكتابةُ إلى الحجاز؟ فقد اختلفت الآراء؛ فهناك من يرى أن الكتابة انتقلت إلى المدينة ومكة في نهاية القرن الخامس الميلادي، في حين يرى آخرون أنها دخلت الحجاز في منتصف القرن السادس الميلادي قبل البعثة النبوية بنحو نصف قرنٍ من الزمان، وهناك من يرى أنّ دخول الكتابة الحجاز كان مطلع القرن السادس الميلادي(٢).

واختلفت الآراء كذلك في السُّبل التي اتخذها الخط العربي ليصل إلى الحجاز، وهناك طريقان محتملان لهذا الانتقال:

الأول: البتراء ← الحيرة والأنبار ← دومة الجندل ← المدينة ← مكة.

الثاني: البتراء ← العلا ← مكة ← المدينة ← الطائف.

وتجنح الدراسات العربية القديمة إلى عدّ الطريق الأول الطريقَ الوحيدَ لانتقال الخط العربي من بلاد الأنباط إلى الحجاز، ويؤكِّد أصحابُها أنَّ الحِيرة كانت المحطةَ التي توقف فيها الخط العربي لينتقل إلى شمال الجزيرة العربية في بلاد الحجاز(٣).

(١) الجبوري، أصل الخط العربي، ص١١١.

(٢) خليفة، شعبان عبدالعزيز، الكتابة العربية في رحلة النشؤ والارتقاء، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م، ص١٤٢.

(٣) خليفة، الكتابة العربية، ص١٤٣. ويلحظ على الطريق الثاني أنّ الخط يتنقل فيه من مكة =

ويَخلُص شعبان خليفة إلى القول: «والرأيُ عندي أنَّ الكتابة العربية قد انتقلت إلى الجزيرة العربية من كِلا الطرفين، وليس لنا أن نتعسَّف فنُحدِّد طريقًا واحدًا»[(١)].

أما سهيلة الجبوري فتميل إلى الرأي القائل بأنّ انتقال الخط العربي الشمالي إلى الحجاز قد تمَّ بشكل رئيس عن طريق الحيرة والأنبار، خصوصًا إذا علمنا أنّ نبيهة عبود قد أشارت إلى أنَّ انتقال الخط العربي إلى الحجاز لم يقتصر على طريق الحيرة بل سلك طريقًا ثانيًا هو طريق الحِجْر، وقد مال كثيرٌ من الباحثين إلى هذا الرأي، منهم جواد علي الذي يذكر أن صلة هذا القلم بأعالي الحجاز وبلاد الشام أقربُ منه صلةً بالحيرة والأنبار، ومنهم أيضًا صلاح الدين المنجد الذي يرى أن عرب الحجاز قد اقتبسوا خطهم عن الأنباط؛ لأجل الاتصال المباشر بهم في رحلاتهم المتواصلة إلى الشام، وقد كانوا يمرُّون دائمًا على ديارهم، ولم يكن للشام طريقٌ آخَرُ يوصلهم إليها[(٢)].

على أنّ خليل يحيى نامي يرفض هذين الرأيين رفضًا باتًّا؛ وذلك لأنّ الحيرة كانت قبل الإسلام مثقفة بالثقافة السريانية؛ لأنها كانت تدين بالنصرانية،

= إلى المدينة ومنها إلى الطائف، وهذا مستحيل؛ فإن صحَّ هذا الطريق فالخط ينتقل من مكة إلى الطائف مباشرة.

(١) خليفة، الكتابة العربية، ص١٤٤.

(٢) الجبوري، أصل الخط العربي، ص٧٠. وانظر أيضًا: علي، جواد، المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢ (١٩٧٨م)، ٨/ ١٦٨؛ المنجد، صلاح الدين، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، بيروت، دار الكتاب الجديدة، ط٢ (١٩٧٩م)، ص١٩.

وكان الخط السرياني هو الخط الرسمي في تلك الأنحاء؛ لأنه كان ترجمان المسيحيين وقلمهم الديني في ذلك الزمان، لذلك نستبعد أن يكون الخط النبطي - قلم الوثنيين - قد تطوَّر في الحيرة النصرانية وهو لا يتمتع بالسيطرة والنفوذ.

كما أنه لم ينشأ أيضًا في بلاد الغساسنة؛ لأنهم كانوا كأهل الحيرة يدينون بالنصرانية ويكتبون بالسريانية.

إذن؛ فالخط العربي قد نشأ ووُلد في بلاد الحجاز؛ لأن الكتابة من الأشياء الضرورية للتجارة، وأهل الحجاز - كما نعلم - كانت حياتهم التجارة، وهي مورد رزقهم الوحيد.

وكان الحجاز في القرن الخامس الميلادي - القرن الذي انتقلت فيه الكتابة النبطية إلى الكتابة العربية - له سيادة روحية وأدبية على أنحاء الجزيرة العربية.

لذلك نظن أنّ الكتابة العربية قد وُلدت وترعرعت في هذه البلاد التجارية، ومنها انتقلت إلى البلاد العربية الأخرى وانتشرت فيها، وفرضت على أهلها كما فرضت عليهم اللهجة الحجازية وتغلبت على لهجاتهم العربية الأخرى(١).

أمَّا مدى انتشار الكتابة في الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام فيمدُّنا الواقدي عن أبي جهم العدوي بالرواية الآتية: «دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلًا كلهم يكتب: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، وطلحة (بن عبيدالله)، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وحاطب بن عمرو أخو سهيل بن عمرو العامري

(١) نامي، خليل يحيى، أصل الخط العربي وتطوره، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، ٣٢، ج١، مايو ١٩٣٥م، ص١٠٢-١٠٤.

من قريش، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وأبان بن سعيد بن العاص بن أمية، وخالد بن سعيد أخوه، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري، وحويطب بن عبدالعزى العامري، وأبو سفيان حرب بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان، وجُهيم بن الصلت بن مخرمة بن عبدالمطلب بن عبد مناف، ومن حلفاء قريش العلاء بن الحضرمي»[١].

كما أمدَّتنا بأسماء ثلاث سيداتٍ مكيَّات كنَّ يكتبن، هنّ: الشفاء بنت عبدالله العدوية، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط، وأم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب. وكانت أم المؤمنين عائشة تقرأ المصحف ولا تكتب[٢]. وإذا كانت الشفاء وأم كلثوم يكتبن في «الجاهلية» فلسنا على يقين من الزمن الذي تعلمت فيه كلّ من السيدة حفصة الكتابة والسيدة عائشة القراءة، هل كان قبل الهجرة أو بعدها؟

أما الكتابة في المدينة فيقول الواقدي: «كان الكتاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلًا، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية، وكان تعلمه الصبيان في الزمن الأول، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدّة يكتبون وهم: سعد بن عبادة بن دليم، والمنذر بن أبي عمرو، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، فكان يكتب بالعربية والعبرانية، ورافع بن مالك، وأُسَيد بن الحُضَير، ومعن بن عَدي البلوي حليف الأنصار، وبشير بن سعد، وسعد بن الربيع، وأوس بن خوليّ، وعبدالله بن أبيّ المنافق. قال: وكان الكَمَلَة منهم – والكامل من يجمع إلى

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٥٧؛ ابن عبدربه، أحمد (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، المكتبة التجارية، (د. ت)، ٤/ ٢١٢.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٥٨.

الكتابة الرمي والعوم -: رافع بن مالك، وسعد بن عبادة، وأُسَيد بن حُضَير، ومعن بن عديّ البلويّ، وأوس بن خوليّ. وكان من يجمع هذه الأشياء في الجاهلية من أهل يثرب: سويد بن الصامت، وحضير الكتائب»[1].

إن الكتابة تعدّ إحدى أهم المعايير لقياس الرُّقى الحضاري عند الأمم القديمة، إن لم تكن أهمها على الإطلاق. ومكة ويثرب تعدان عند ظهور الإسلام أرقى المراكز الحضرية في الجزيرة العربية، وإذا كانت معرفة الكتابة بين أهلها بهذه الندرة فما حال المراكز الحضرية الأخرى والتجمعات القبلية المتفرقة في أنحاء الجزيرة؟

يقول جواد علي: «إن الإسلام ثورة على مجتمع قائم ثابت، وعلى مُثُل تمسَّك بها أهل الجاهلية، وعلى قوم كانوا قد تسلطوا وتحكَّموا وتجبَّروا بحكم العرف والعادات، ككل ثورة تقع، وكما يقع الآن، وَسَم الإسلام الجاهلية بكل منقصة ومثلبة... حتى ظهرت تلك الأيام على الصورة التي انتهت إلينا عن «الجاهلية» وكأنّ الناس فيها جهلة لم يكن عندهم شيءٌ من علم في هذه الحياة يومئذ»[2].

إنّ الصورة التي رسمتها المصادر عن وضع الكتابة في الجزيرة العربية قبل الإسلام قاتمة، ولكننا لا نعتقد أنّ المصادر تعمَّدت رسم تلك الصورة، على أنّ التصوُّر العام لدى كُتَّاب الإسلام الأولين عن الوضع الحضاري في الفترة

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٥٩. الواقع أن الإسلام انتقص العرب قبل الإسلام من حيث معتقداتهم لا من حيث مستواهم الحضاري، بل الذين وسموا العرب قبل الإسلام بكل منقصة ومثلبة هم أكثر كُتاب القرنين الثاني والثالث الهجريين (٨ و٩ م) وبعض من جاء بعدهم.

(٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ١/ ١٠٩.

السابقة للإسلام يندرج في الإطار الذي رسمه جواد علي. وهذا البحث سوف يتقصى الشواهد التاريخية والشعرية لمعرفة إذا كانت هذه الشواهد تُقدِّم صورةً مغايرةً لما ذكَرَته رواية الواقدي الآنفة الذكر، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لمعرفة إذا كان وجود الكتابة مقصورًا بشكل كبير على مكة ويثرب أو أن البلدان والقبائل الأخرى كانت على معرفة بالكتابة متفاوتة فيما بينها.

ومن الطبيعي أنّ الشواهد التي سوف نوردها قد تتقدَّم زمنيًّا على ظهور الإسلام بفترة قصيرة، أو تواكب ظهور الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية في عهد الرسالة؛ لأن وجود الكتابة عملية متواصلة وليست حدثًا عابرًا.

الكتابة بمكة:

لقد أتينا فيما تقدَّم على ذِكر الأدلة المتيسِّرة على معرفة أهل مكة بالكتابة مدةً تعود لأكثر من جيلين قبل الإسلام، وسوف نحاول فيما يأتي أن نُثبت أنَّ معرفة أهل مكة بالكتابة عند ظهور الإسلام أوسع بكثير ممَّا حدَّدته رواية الواقدي السابقة، ومن أدلتنا على ذلك: أنّ ناسًا من بني قُصَيّ دخلوا دار الندوة للتشاور في بعض الأمور العامة فأراد الشاعر المكي عبدالله بن الزِبَعْرَى السَّهمي أن يدخل معهم فيسمع من مشورتهم فمنعوه، فكتب شعرًا في باب الندوة مما يلي الكعبة يهجوهم فيه، فلما خرج بنو قصي إذا هم بالكتاب فقرؤوه، فإذا فيه:

---

(١) ابن حبيب، المنمق، ص٣٤٢. وانظر: ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ/ ٨٤٥م)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمد محمود شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، ١/ ٢٣٥؛ السهيلي، عبدالرحمن (ت ٥٨١هـ/ ١١٨٤م)، الروض الأُنف، تحقيق عبدالرحمن =

ألهى قصيًا عن المجدِ الأساطيرُ ورشوةٌ مِثلما تُرْشَى السَّفاسيرُ
وأكلُها اللَّحْمَ بَحْتًا لا خليطَ لَهُ وقولها: رَحلتْ عِيرٌ، أَتَتْ عيرُ[1]

وتفيدنا هذه الرواية بمعرفة ابن الزبعرى بالكتابة، واسمه لم يضمَّن في قائمة الواقـدي التي نقلها البلاذري، والأهم من هذا أنه لم يكتب الأبيات على باب دار الندوة إلا لهدف أن يقرأها ناسٌ كثيرون ويسـير الهجاء في الناس، وهذا ما حدث فعلًا؛ فقد سـبَّب هذا الشـعر إشكالًا بين عشـيرة بني قُصي وبين عشيرة بني سهم قوم ابن الزبعرى، وتفاداه بنو سهم بتسليم الشاعر إلى بني قصي.

وعندما أعلن رسـول الله ﷺ دعوته إلى الله بمكة كان أبو سـفيان بن حرب والعبـاس بـن عبدالمطلب مـع نفرٍ آخريـن في رحلة تجاريـة في اليمن، وكتب حنظلـة بن أبي سـفيان (قتل في غزوة بدر مشـركًا) رسـالةً إلى أبيـه، وكان ممَّا أخبره فيها من مستجدات الأحوال بمكة:

«.. أخبرك أنّ محمدًا قام بالأبطح فقال: أنا رسـول الله، أدعوكم إلى الله عزّ وجل»[1].

وفي قصة نـزول الوحي على النبي ﷺ تنقل مصادرنا حديثًا يرويه الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشـة: «فرجع النبـيُّ ﷺ إلى خديجة يرجف فؤادُه، فانطلقت به إلى ورقة بن نوفل، وكان رجلًا تنصَّر يقرأ الإنجيل بالعربية...»[2].

= الوكيـل (القاهـرة، (د. ت)، ٢/ ٨٧؛ وابـن الزِبَعْرَى: شـاعرٌ مُفلَّق كان مؤذيًا لرسـول الله ﷺ بلسانه، ثم أسلم بعد الفتح واعتذر إليه، ولم أجد له تاريخ وفاة فيما بين يديَّ من مراجع.

(١) ابن كثير، إسـماعيل (ت ٧٤٧هـ/ ١٣٧٢م)، السـيرة النبويـة، تحقيق مصطفى عبدالواحد، بيروت، دار المعرفة (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ١/ ٣١١.

(٢) البخـاري، محمد بن إسـماعيل (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م)، صحيح البخـاري، بيروت، عالم =

ورواية بعضها: «وكان يكتب الكتاب العربي، فكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب...»(١).

ويرد ذِكر القراءة والصحيفة في سياق إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ أُخْبِر أنّ أخته فاطمة بنت الخطاب وزوجها ابن عمها سعيد بن زيد بن عمرو قد أسلما، فجاء إلى منزلها غاضبًا فوجد عندهما خباب بن الأرتّ معه صحيفة فيها من سورة «طه» يُقرئها إياها، ثم أخفتها أختُه فقال لها: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمَّد، وكان عمر كاتبًا(٢).

ومن الواضح في هذه الرواية أن كُلًّا من خباب وعمر يجيدان القراءة والكتابة، ويحتمل أيضًا أنّ سعيد بن زيد وزوجته فاطمة كانا يعرفان القراءة، وربما عرفا الكتابة أيضًا.

ومما يؤكّد أهمية الكتابة وانتشارها بين أهل مكة عند ظهور الإسلام أنه لما قام بنو هاشم وبنو المطلب بحماية النبي صلى الله عليه وسلم ودفع أذى قريش عنه قرَّرت قريشٌ معاقبةَ هاتين العشيرتين معًا، وتعاهدوا على ذلك وكتبوه في صحيفة: «اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني

= الكتب (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)؛ ابن هشام، السيرة، ١/ ٢٣٨.

(١) الزهري، محمد بن مسلم (ت ١٢٤هـ/ ٧٤١م)، المغازي النبوية، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار الفكر (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص٤٤؛ الفاكهي، أخبار مكة، ٤/ ٩٤؛ الأصبهاني، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، كتاب الأغاني، بيروت، دار الثقافة، ط٥ (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ٣/ ١١٤، وقد تحرَّفت فيه عبارة: «وكان يكتب العربي فكتب بالعربية من الإنجيل...» إلى: «فكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب بالعبرانية من الإنجيل».

(٢) ابن هشام، السيرة، ١/ ٣٤٤.

المطلب على: ألا يَنْكِحُوا إليهم ولا يُنْكِحُوهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم، فلمَّا اجتمعوا على ذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم..»[1].

وقد اشتركت جميعُ بطون قريش في التوقيع على هذه المعاهدة - عدا بني هاشم وبني المطلب - ثم إنّ وضعها في الكعبة يعكس أهميتها من ناحية وإعلانها لكلِّ الناس من أهل مكة والوافدين إليها من العرب من ناحية أخرى.

وينبغي التنبيهُ على أنّ قائمة الواقدي التي حَصرت من يعرف الكتابة بمكة في هذا الوقت بسبعةَ عَشَر رجلًا، أنّ هؤلاء السبعة عشر كانوا عدا ثلاثة منهم وقت كتابة الصحيفة من المسلمين، بل إنّ عددًا منهم كانوا مهاجرين في الحبشة. واختلفت المصادرُ في كاتبها؛ فبعضها ذكر أنه عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار[2]، وبعضها ذكر أنه بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار[3]، وبعضها الآخر ذكر أنه النضر بن الحارث[4]، وبعضها ذكر أنه طلحة بن أبي طلحة العبدري[5]. ويمكن أن نستنتج من هذا الخلاف

(١) ابن هشام، السيرة، ١/ ٣٥٠.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ٢٣٤-٢٣٥.

(٣) ابن إسحاق، محمد بن يسار (ت ١٥١هـ/ ٧٦٨م)، كتاب السير والمغازي، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ط١ (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ص١٥٦. وقارن: ابن سعد، محمد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، (د. ت)، ١/ ٢٠٩: «وكان الذي كتب الصحيفة منصور بن عكرمة العبدري»؛ وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص١٢٧: «وأبو الروم منصور بن عبد شرحبيل، يقال: إنه كاتب الصحيفة على بني هاشم وبني المطلب».

(٤) ابن هشام، السيرة، ١/ ٣٥٠.

(٥) ابن حجر، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، =

على كاتبها أنَّ كل هؤلاء الأربعة كانوا يجيدون الكتابة.

والدليل الحاسم على انتشار الكتابة بين أهل مكة عند ظهور الإسلام هو عناد كفار قريش ومحاولتهم تعجيز الرسول ﷺ في طلباتهم حتى يؤمنوا بما دعا إليه، ويصوِّر ذلك القرآن الكريم في الآية: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[(١)]. ويقول المفسِّر مجاهد بن جبر (ت ١٠٢هـ/ ٧٠٢م) في تفسير قوله ﴿كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾، قال: من ربِّ العالمين إلى فلان عند كلِّ رجل صحيفةٌ تصبح عند رأسه يقرؤها.

أما المفسِّر قتادة بن دعامة السَّدُوسي (ت ١١٧هـ/ ٧٣٥م) فيفسِّرها بقوله: «أي كتابًا خاصًّا نؤمر فيه باتّباعك»[(٢)].

ولا شك عندي أنه لو كانت معرفة الكتابة بمكة مقصورةً على عددٍ قليل من الأفراد لما حاولوا أن يُعجزوا الرسول ﷺ بهذه الوسيلة؛ لأنَّ من لا يعرف الوسيلة لا يُدرك قدرها وأهميتها. ويبيِّن الله سبحانه وتعالى أنهم سوف يكابرون ويعاندون مهما أُنزل عليهم من الآيات الواضحة: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾[(٣)].

وتكشف المصادرُ عن وجود عددٍ من المكيِّين الذين كانوا يحسنون الكتابة ولم تشملهم قائمة الواقدي، منهم من أشرنا إليه في سياق البحث، أما الذين لم

= القاهرة، مكتبة البابي الحلبي (١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م)، ٨/ ١٩٢.

(١) سورة الإسراء، آية ٩٣.

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، بيروت، دار الفكر (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ١٥/ ١٦٤.

(٣) سورة الأنعام، آية ٧.

نـأت على ذكرهم فمنهم: النضر بـن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبدالدار، وكان أشدّ قريش مجاهرةً للنبي ﷺ بالتكذيب والأذى، وكان على اطلاع على كتب الفرس ومخالطًا للنصـارى واليهود، ونزلت فيه بعض الآيات، إحداها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾[١]، وليـس لدينـا نـصٌّ علـى أنّ زيـد بـن عمـرو بن نفيل العدوي، وعبيدالله بن جحش الأسـدي يعرفان الكتابة، لكنّ موقفهم الرافض لعبـادة الأوثان وأسـفارهما في البلدان بحثًا عن دين خاصَّـة الحنيفية[٢] يُرجِّح أنهما كانا على معرفةٍ بالقراءة والكتابة وعرفا مستوى ورقة بن نوفل الفكري.

وتتمـدَّد قائمة الكُتَّـاب بمكة من خلال قراءة أخبار السـيرة، سـواء أولئك الذيـن كتبـوا للنبي ﷺ الوحـي أو العهـود والمواثيـق أو الرسـائل، أم الذين يـرد مـن الأدلة مـا يفيـد معرفتهـم الكتابـة؛ فمنهم أبوبكـر الصديـق، فعندما ركـب سُـراقة بن جعشـم في أثر النبـي ﷺ وأبـي بكر d في طريـق هجرتهم ليرُدَّهـم إلـى مكـة ليأخـذ مكافـأة قريـش على ذلـك عثرت بـه فرسُـه عددًا مـن المرَّات، وعرف أنه لا سـبيل لمـا أراد، فناداهم من بعيـد قائلًا: «أنظِروني أكلِّمكـم... فقال رسـول الله ﷺ لأبي بكر: قل له: وما تبتغـي منَّا؟ فقال ذلك أبوبكـر. قال: تكتُب لي كتابًا يكون آيةً يبني وبينك[٣]. قال: اكتُب له يا أبا بكر. قال: فكتب لي في عظم أو رُقعة أو خزفة، ثم ألقاه إليَّ...»[٤]. ومنهم: الزبير بن

(١) سورة لقمان، آية ٦.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ١٣٩-١٤٠.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٢٢٢، ٢٢٩، ٢٣١.

(٤) ابن هشام، السيرة، ١/ ٤٩٠؛ ابن عبدالبر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق محمد =

العوام[1]، وخالد بن الوليد[2].

ومن الكُتَّاب الذين كانوا مواظبين على كتابة الرسائل للنبي e: عبدالله بن الأرقم الزهري[3]، وهشام بن العاص السهمي؛ فيروى عن عمر بن الخطاب قوله: «كنّا نقول: ما اللهُ بقابل ممّن افتتن صَرْفًا ولا عَدلًا ولا توبة، قومٌ عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم! فلمَّا قدم رسول الله ﷺ أنزل الله تعالى في قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾[4]. قال عمر بن الخطاب: فكتبتُها بيدي في صحيفة وبعثتُ بها إلى هشام بن العاص، فقال هشام بن العاص: فلمَّا أتتني جعلتُ أقرؤها بذي طُوى، أُصَعِّد فيها وأُصَوِّب ولا أفهمُها، حتى قلت: اللهمَّ فهِّمنيها. قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما

= علي البجاوي، بيروت، دار الجيل، (١٤١٣/ ١٩٩٢م)، ١/ ٦٩؛ ابن كثير، السيرة، ٤/ ٦٩٠؛ ابن حجر، فتح الباري، ٨/ ٦٣٩.

وقارن: ابن القيم، زاد المعاد، ٣/ ٥٥: «سراقة بن مالك المدلجي... فكتب له أبو بكر بأمره في أديم».

(١) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ١/ ٦٩؛ ابن كثير، السيرة، ٤/ ٦٧٧.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٢٨، ابن عبدالبر، الاستيعاب، ١/ ٦٩؛ ابن كثير، السيرة، ٤/ ٦٧٧.

(٣) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ١/ ٦٩؛ ابن كثير، السيرة، ٨/ ٦٣٩.

(٤) سورة الزمر، الآيات ٥٣-٥٥.

أُنزلت فينا وفيما كنَّا نقول بأنفسنا ويقال فينا...»(١).

ومنهم مصعب بن عمير؛ بعثه رسول الله ﷺ إلى المسلمين في المدينة قبل الهجرة وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلِّمهم الإسلام، ويفقِّههم في الدين، وكان يسمَّى المقرئ بالمدينة(٢).

وعبدالله بن جحش الذي أمَّره النبيُّ ﷺ على سرية نخلة، وقال حين صلى العشاء: «وافِ مع الصُبح معك سلاحُك، أبعثُك وَجْهًا... فدعا رسول الله ﷺ أبيَّ بن كعب فدخل عليه، فأمره رسول الله ﷺ وكتب كتابًا، ثمَّ دعاني فأعطاني صحيفةً من أديم خولاني، فقال: قد استعملتُك على هؤلاء النفَر، فامضِ حتى إذا سرتَ ليلتين فانشُر كتابي، ثم امضِ لما فيه...»(٣).

وتذكُر المصادر ثلاثةً من أولاد أبي أُحَيحة سعيد بن العاص كانوا يكتبون، أحدهم عبدالله، وكان اسمُه الحكم فسمَّاه رسول الله ﷺ عبدالله، وأمره بتعليم الكتاب بالمدينة، والآخر اسمه خالد كان قديم الإسلام، واستكتبه النبيُّ ﷺ، وهو الذي كتب كتاب أهل الطائف لوفد ثقيف، ومشى في الصلح بينهم وبين رسول الله ﷺ، والثالث اسمه أبان، وكلهم ولاهم الرسول ﷺ ولايات(٤)، ولا

(١) ابن إسحاق، كتاب السيرة والمغازي، ص٤٧٦؛ ابن هشام، السيرة، ١/ ٤٧٦.

(٢) ابن هشام، السيرة، ١/ ٤٣٤.

(٣) الواقدي، المغازي، ١/ ١٣؛ ابن هشام، السيرة، ١/ ٦٠١؛ البلاذري، أنساب، ١/ ٣٧١.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ٤/ ٦٩؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ١/ ٤٣٣؛ المصعب، نسب قريش، ص١٧٤؛ اليعقوبي، التاريخ، ١/ ٧٦؛ ابن عبدالبر، الاستيعاب، ١/ ٦٩؛ ابن الأثير، علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)؛ أسد الغابة، القاهرة، كتاب الشعب، (د. ت)، ٣/ ٢٦٢؛ ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ٢/ ١٠٢ (رقم الترجمة ١٧٧٩)، فتح الباري، ٨/ ٦٣٩.

أستبعد أنّ أباهم وأخوَيْهم أحيحة والعاصي كانوا يكتبون كذلك؛ لكن بحكم موقفهم المعادي للإسلام فمن الطبيعي ألَّا تحفل المصادر بذِكر تفاصيل حياتهم.

ومنهم الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وكان من السابقين إلى الإسلام، وهو الذي استخفى الرسول ﷺ في داره التي في أصل الصفا بمكة، واستعمله بعد الهجرة على الصدقات(١).

ومنهم حاطب بن أبي بلتعة اللخمي(٢)، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر(٣)، وسالم مولى أبي حذيفة(٤)، ويبدو أن أسماء بنت مخربة كانت تعرف الكتابة(٥)، ولا أظن كتابة النساء كانت محصورةً في ذلك العدد القليل منهن.

الكتابة في المدينة:

إنّ المادة المحفوظة عن واقع الكتابة في المدينة قبل الإسلام أقلُّ بكثير ممَّا هو محفوظ عن الكتابة في مكة، ولعل ذلك يعود إلى أمرين:

أحدهما: أن الكتابة فيها كانت فعلًا أقلَّ ممَّا هي في مكة؛ لأنه كان يغلب على مجتمعها النشاط الزراعي، في حين يغلب على مجتمع مكة النشاط التجاري والعلاقات الإقليمية والدولية الواسعة نسبيًّا، وهذا تكون الحاجة فيه

(١) ابن سعد، الطبقات، ١/ ٢٦٨، ٢٧٤؛ ابن عبدالبر، الاستيعاب، ١/ ٦٩؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ١/ ٧٤.

(٢) الواقدي، المغازي، ٢/ ٧٩٧؛ ابن هشام، السيرة، ٢/ ٣٩٨.

(٣) ابن الجوزي، الوفاء، ١/ ٢٤٢.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٨٧.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ٨/ ٣٠٠؛ ابن عبدالبر، الاستيعاب، ٧/ ٤٩٢.

إلى الكتابة أكثرَ من غيره.

وثانيهما: أنّ الرسول ﷺ بُعث بمكة ومن أهلها، فاقتضى معرفة نشأته ونسبه والمجتمع الذي عاش فيه وعاش فيه آباؤه، إضافةً إلى مواقف كبار أهل مكة من دعوته وإيذائه وإيذاء من اتبع دعوته، فأنزل الله فيهم قرآنًا، وأدَّت معرفة تفسير هذه الآيات وأسباب نزولها مع سيرة الرسول ﷺ إلى تسليط الضوء على تاريخ مكة وأفرادها أكثر من غيرها، وتوافرت لدينا بعض المعلومات أكثر ممَّا توافر عن غيرها.

على أنّ أحد الباحثين يرى أن «المدينة... بيئة متحضرة موفورة الثروة منتشرة الثقافة، تنتشر بين أهلها القراءة والكتابة، ولهم اطلاع على الأديان، وذلك لاتصالهم باليهود»[1].

يقول الشاعر قيس بن الخطيم - وهو ممن أدرك الإسلام ولكنه مات ولم يُسلِم - في قصيدة، يخاطب خصومهم:

لَمَّا غَدَتْ غُدوةً جِباهُهُمُ حَنَّتْ إلينا الأرحامُ والصُّحُفُ

يعني: بكوا إلينا، والصحف هي التي كُتب فيها الحلف بينهم[2]. كما أشار إلى إحدى مواد الكتابة في قصيدة أخرى:

أتعرفُ رسمًا كاطِّرادِ المذاهِب لِعَمْرَةَ وحشًا غيرَ موقِف راكِبِ

(١) الجبوري، يحيى، شعر المخضرمين وأثر الإسلام، بيروت، مؤسسة الرسالة (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ط٢، ص٦١.

(٢) ابن قتيبة، كتاب المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م)، ٢/ ١١١٧؛ الأصبهاني، الأغاني، ٣/ ٢٤؛ وروايته للشطر الأول: «لما بدت نحونا جباهم»؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ٥/ ٦١٣.

والاطِّراد: التتابع. والمذاهب: جُلود كانت تُذهَّب، واحدُها مُذَهَّب، تجعل فيها خطوط مُذهَّبة بعضها في أثر بعض. ويقول: يلوح رسمُها كما يلوح المُذَهَّب(١).

ومع أنّ شاعرَ الرسول ﷺ حسَّانَ بن ثابت قال قصيدة في أعقاب غزوة بدر، فإنه استخدم في مطلعها مفردات الكتابة التي كثيرًا ما يتداولها شعراء ما قبل الإسلام، وهي تعكس من ناحية معرفة الكتابة بين العرب:

عرفتُ ديارَ زينبَ بالكثِيبِ كَخَطِّ الوَحْيِ في الورقِ القشيبِ

ويشرح السُّهَيلي البيت فيقول: «... إذا وصفوا الرسومَ وشبَّهوها بالكَتْبِ في الورق، فإنما يصفون الخط حينئذٍ بالدُّرُوس والامِّحاء؛ فإنَّ ذلك أدلُّ على عَفَاء الديار وطُمُوس الآثار، وكثرة ذلك في الشعر تغني عن الاستشهاد عليه»(٢).

وممَّا يدُل على استخدام أهل المدينة الكتابة أنهم بعد بيعة العقبة الأولى كتَبت الأوس والخزرج إلى رسول الله ﷺ: ابعث إلينا مقرئًا يقرئُنا القرآن. فبعث مصعب بن عمير العبدري...»(٣)، ولم يكتفوا برسالة شفوية.

ومثلما أمدَّنا الواقدي بقائمة بأسماء الذين جاء الإسلام وهم يحسنون الكتابة بمكة، أمدَّنا بأخرى عن الذين كانوا يحسنون الكتابة في المدينة عند ظهور الإسلام.

ونعتقد أنّ الواقدي يمثل المصدر الرئيس للمؤلفين الذين ألفوا من بعده

(١) الأصبهاني، الأغاني، ٣/ ٩؛ ابن منقذ، أسامة بن مرشد (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)، المنازل والديار، دمشق، المكتب الإسلامي (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م)، ١/ ١٥٩.

(٢) السهيلي، الروض الآنف، ٥/ ١٤٨، ١٧٧.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ١/ ٢٢٠.

وأفادوا من كتبه، مثل ابن سعد، والبلاذري، واليعقوبي في معلوماتهم عن الكتابة والكتّاب، سواء نَصُّوا على الاقتباس منه أم لم ينُصُّوا. ولا نستبعد أنّ عمر بن شبة أيضًا أفاد منه في مؤلفه «كتَّاب الكتاب».

وقائمة الواقدي عن كُتَّاب المدينة عند ظهور الإسلام التي اقتبسناها آنفًا تشمل ثلاثة عشر كاتبًا يشكل المسلمون منهم أحد عشر رجلًا، وزيد بن ثابت أصغرُهم سنًّا إذ كانت سنُّه عندما هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة إحدى عشر سنةً[1]، ومن هنا يمكن أنه تعلم الكتابة بعد الهجرة، ومن الجدير بالذكر أنّ سويد بن الصامت التقى بالرسول ﷺ قبل الهجرة بنحو خمس سنواتٍ وعرض عليه صحيفةً كانت معه يُسمِّيها «مجلة لقمان»، فقال له النبي ﷺ: «إنّ هذا لكلامٌ حَسَن، والذي معي أفضل منه، قرآنٌ أنزله الله عليَّ وهو هدى ونور ...»[2].

وتضيف المصادر إلى قائمة الواقدي عن كُتَّاب المدينة أسماءً أخرى ربما كان هو مصدرها، وذكرت أنهم كانوا يكتبون بالعربية قبل الإسلام، وهم: عبدالله بن رواحة[3]، وأبو عبس بن جبر[4]، وعبدالله بن زيد[5]. وثمة بعض الصحابة الأنصار الذين يحسنون الكتابة ونعتقد أنّ معرفتهم بها تعود

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، ٢/ ٢٧٨ (ترجمة ١٨٢٤).

(٢) ابن هشام، السيرة، ١/ ٤٦١؛ وانظر الأصبهاني، الأغاني، ٣/ ٢٥.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٥٢٦.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٤٥٠؛ ابن قتيبة، المعارف، ص٢٣٦؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣/ ٤٣١ واسمه عنده: عبدالرحمن بن جبر بن عمرو الخزرجي.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٥٣٦.

إلى الفترة السابقة للإسلام، منهم: ثابت بن قيس بن شماس الذي كان يكتب للرسول ﷺ بعض رسائله(١)، وعبادة بن الصامت الذي قال: «علمتُ ناسًا من أهل الصفة الكتابة والقرآن»(٢)، ومعاذ بن جبل وكان من كُتاب النبي ﷺ(٣) وجمع القرآن على عهده ﷺ(٤) ووُصف بأنه كان معلمًا من المعلمين(٥)، وسعد بن مالك الساعدي الذي توفي وهو يتجهز للخروج للمشاركة في غزوة بدر، وكتَب وصيته في مؤخِّرة رحله، فأوصى للنبي ﷺ برحله وراحلته وخمسة أوسُق من شعير، فقبلها النبي ﷺ، ثم ردَّها على ورثته(٦)، وسعيد بن عبيد بن النعمان (أبوزيد) وهو الذي يقال له: القارئ، ويُروى أنه ممَّن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ(٧)، وعاصم بن ثابت بن قيس الذي وجَّهه النبيُّ ﷺ إلى بني لِحْيان من هُذَيل ليعلمهم القرآن فغدروا به(٨)، وحَرَام بن مِلْحان بعثه النبيُّ ﷺ في مهمة مماثلة إلى بني عامر بنجدٍ وواجه المصير نفسه مع أصحابه عند بئر معونة(٩).

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ١/ ٢٨٦-٣٥٣؛ ابن كثير، السيرة، ٤/ ٦٧٢؛ حميد الله، ص١٦٤.

(٢) أبو داود.

(٣) اليعقوبي، التاريخ، ١/ ٨٠.

(٤) النيسابوري، ١/ ٢٤.

(٥) الكتاني، ٢/ ٤١٩.

(٦) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٦٢٥.

(٧) ابن سعد، الطبقات، ١/ ٤٥٨؛ النيسابوري، ١/ ٢٤.

(٨) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٤٦٢.

(٩) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٥١٨.

وهناك بعض الصحابة من الأنصار الذين أسند إليهم النبيُّ ﷺ مسؤولياتٍ تتطلب معرفة الكتابة، مثل: عبدالله بن كعب بن عمرو، وكان عامل النبي ﷺ على المغانم يوم بدر[1]، وأبي الهيثم ابن التيهان الذي كان يخرص الثمار على عهد النبي ﷺ[2].

وذكرت بعضُ المصادر أنَّ ابن عباس قال: «كان ناسٌ من الأسرى (في غزوة بدر) لم يكن لهم مال، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلِّموا أولاد الأنصار الكتابة[3]. قال: فجاء غلامٌ يومًا يبكي إلى أمه، فقالت: ما شأنك؟ فقال: ضربني معلِّمي. فقالت: الخبيث يطلب بذحل بدر! والله لا تأتيه أبدًا»[4].

ولم نعثر في مصادر تراجم صغار الصحابة - التي اطلعنا عليها - على إشارةٍ يُفهم منها أنّ أحدهم تعلَّم الكتابة على أحَد أسرى بدر، وكذلك تراجم من أسلم من أسرى بدر لم نجد فيها أنّ أحدهم افتدى نفسه من الأسر بتعليم صبيان المسلمين الكتابة غير الإشارة السابقة.

وما من شكٍّ أنّ الرسول ﷺ كان شديد الحرص على تعليم أولاد المسلمين المهاجرين والأنصار الكتابة والقراءة، وقد سبقت الإشارةُ في هذا البحث إلى أنه عَهِد إلى عبدالله بن سعيد بن العاص «أن يعلم الكِتَاب بالمدينة»، وعبدالله كان مسلمًا ولم يكن من أسرى بدر[5]. ونعتقد أنه كان حريصًا على

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٥١٨.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٤٤١.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٤٤٨؛ ابن كثير، السيرة، ٢/ ٤١٢ (رواية الإمام أحمد بن حنبل).

(٤) ابن كثير، السيرة، ٢/ ٥١٢؛ ابن القيم، زاد المعاد، ٣/ ١١٢. والذَّحْل: الثأر.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ١/ ٤٣٣؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٨٠؛=

تعليم الكبار قبل الصغار، ولدينا نصٌّ آخرُ قد يُفهم منه أنّ من كانوا يحسنون الكتابة من الأنصار أكثر من إخوانهم المهاجرين. قال الصحابي عبدالله بن مُغفَّل المزني: كان رسول الله ﷺ إذا هاجر أحدٌ من العرب وكل به رجلًا من الأنصار، فقال: «فقِّهه في الدين وأقرئه القرآن». فهاجرتُ إلى رسول الله فوكل بي رجلًا من الأنصار ففقّهني في الدين وأقرأني القرآن، وكنت أغدو عليه فأجلس ببابه حتى يخرج متى ما يخرج، فإذا خرج تردَّدت معه في حوائجه، فأستقرئُه القرآن وأسألُه في الدين حتى يرجع إلى بيته، فإذا دخل بيته انصرفت عنه[1].

أمَّا كتابة النساء في المدينة فليس لدينا حتى الآن نصوصٌ صريحة بهذا المعنى، على أنه يمكن أن يُفهم من قصة الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ من بني النجار مع أسماء بنت مخربة أنّ بعضهنّ كُنَّ يكتبن، قالت الربيِّع: «دخلت في نسوةٍ من الأنصار على أسماء بنت مخربة أمّ أبي جهل في زمن عمر بن الخطاب، وكان ابنها عبدالله بن أبي ربيعة (المخزومي) يبعث إليها بعطر من اليمن وكانت تبيعُه إلى الأعطية (موعد العطاء)، قلنا: نشتري منها، فلمَّا جعلت لي في قوارير، ووَزَنَت لي كما وَزَنَت لصواحبي قالت: اكتبن لي عليكنّ حقي. فقلت: نعم أكتب لها على الربيع بنت معوذ ...»[2].

= ابن الأثير، أسد الغابة، ٣/ ١٧٥؛ ابن حجر، الإصابة، ١/ ٣٤٤.

(١) ابن شبة، تاريخ المدينة، ٢/ ٤٨٧.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ٨/ ٣٠٠.

الكتابة في الطائف:

هناك من الدلائل ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أنّ الطائف قبل الإسلام كانت تتمتع بمستوى حضاري يماثل مستوى مكة إن لم يَفُقْه، وقد اشتَرَكت مع مكة في كثير من المنافع مثل تجارة القوافل، أو تملّك بعض القرشيين البساتين في الطائف، وقيام عددٍ كبير من المصاهرات بين أسر البلدتين، وقد مكّنت وفرة المياه بها وجودة التربة واعتدال مناخها من قيام زراعة مزدهرة للمحاصيل والثمار، وتوَّج أهل الطائف ذلك بتشييد سورٍ يطيف ببلدتهم ويوفر لهم الأمن، فيتفرغون للنشاط والإنتاج، لكن مع كل ذلك عن حياة مجتمع الطائف قبل الإسلام قليلة. وقول ابن سلام[1]: «وبالطائف شِعرٌ وليس بالكثير، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء...» يمكن توسيعه بأنّ سبب قلة الأخبار عن الطائف تعود إلى قلة اشتراكها في الحروب بين القبائل أو أيام العرب، وكذلك في تحالفاتها، إذ لم يكن لديها الدوافع أو الحاجة إليها؛ لوجود سورٍ يحمي بلدتهم، وكانوا مشغولين بالعمل والإنتاج داخلها.

ويمكن الاستدلال على الرُّقيّ الفكري النسبي في الطائف ببروز بعض الأفراد مثل أمية بن أبي الصلت الذي «قد قرأ كتاب الله U الأوَّل، فكان يأتي في شِعره بأشياء لا تعرفها العرب»[2]. وقد نظر في الكُتب وقرأها وجال في الأقاليم المجاورة، وكان ذا تأثير في أهل مكة؛ فيذكر أنه قدم على أهل مكة بـ«باسمك

---

(١) ابن سلام، ١/ ٤٥٩.

(٢) الأصبهاني، الأغاني، ٤/ ١٢٦؛ ابن قتيبة، المعارف، ص٦٠.

اللهُمَّ» فجعلوها في أول كُتبهم[1].

والحارث بن كِلْدة الثقفي الذي سافر في البلاد، ويُذكر أنه اكتسب معارف من بلاد فارس خاصَّة في الطب[2]، كما ذُكر أنّ عدَّة نفرٍ من قريش وثقيف سافروا في تجارة إلى مصر كان فيهم المغيرة بن شعبة[3]، وأصبح المغيرة بعد إسلامه أحَدَ كُتَّاب النبي ﷺ[4]، وذلك لمعرفته الكتابة في بلده الطائف قبل الإسلام. وفي كِتاب النبي ﷺ لثقيف الذي كتبه لهم عند دخولهم في الإسلام: «... وما كان لهم من دَيْنٍ في صُحُفِهم اليوم الذي أسلموا عليه في الناس فهو لهم»[5]. وفي رواية أخرى: «وما كان لهم من دَيْنٍ في رَهْن فبلغ أجلَهُ فإنه لواطٌ مبَرأٌ من الله، وما كان من دَين في رهن وراء عكاظ فإنه يُقْضَى إلى عكاظ برأسه... وما كان لهم من دين في رهن لم يُلط، فإن وَجَد أهلُه قضاءً قضوا، وإن لم يجدوا قضاءً فإنه إلى جمادى

---

(١) الأصبهاني، الأغاني، ٤/ ١٢٦.

(٢) ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، عيون الأبناء في طبقات الأطباء، بيروت، دار مكتبة الحياة، (د. ت)، ص١٦١.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ط١ (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ١٣/ ٣٤٣.

(٤) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ١/ ٩١؛ المسعودي، علي بن الحسين (ت بعد ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م)، التنبيه والإشراف، بيروت، مكتبة الهلال (١٩٨١م)، ص٢٦١؛ ابن عبدربه، العقد الفريد، ٤/ ٢١٥.

(٥) أبو عبيد، القاسم بن سلام (٢٢٤هـ/ ٨٣٨م)، كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص١٨٥.

الأولى من عام قابل، فمن بلغ أجله فلم يقضه فإنه قد لاطه»[١].

وهـذه النصـوص تبيِّن أنَّ ثقيفًـا كانوا يكتبون ديونهـم في صُحف، كما تبين استعمالهم للتواريخ لتحديد مُدَد الدين.

ويظهـر أن الكتاتيـب كانـت في الطائف منذ ما قبل الإسـلام واسـتمرَّت في الإسـلام؛ فقد قـال المدائني: «أُسْـلِمَ زياد بالطائف وهو ابن خمس سـنين في كُتَّاب جبير بن حية الثقفي»[٢]. ويظهر لي أنّ ذلك كان قبل دخول أهل الطائف في الإسلام سنة تسع من الهجرة.

ومثل زياد كان السـائب بـن الأقرع مولى ثقيف، وكان رجلًا كاتبًا حاسـبًا، فقـال له عمر بن الخطاب: «الحقْ بهـذا الجيش فكن فيهم؛ فإن فتح الله عليهم فاقسـم على المسـلمين فيئهـم، وخذ خمس الله ورسـوله، وإن هـذا الجيش أصيب فاذهب في سواد الأرض، فبطن الأرض خير من ظهرها»[٣].

وأدَّى تأخُّـر إسـلام أهـل الطائـف إلى كون اشـتراكهم في خدمة الإسـلام وصحبة الرسـول ﷺ قليلًا، ومن ثَمَّ فلم تحفل كتب التراجم بتفاصيل حياتهم التي سوف تُثري معرفتنا بواقع مجتمع الطائف قبيل الإسلام وعند ظهوره.

---

(١) حميد الله، ص٢٨٥. والمقصود بعكاظ: موعد انعقاد سوق عكاظ السنوي.

(٢) البلاذري، أنساب الأشرف، ق٤، ١/ ١٩٣. والمقصود هنا: زياد بن أبيه، أو ابن أبي سفيان، وكان كاتبًا لعتبة بن غزوان عندما أسَّس البصرة سنة ١٦هـ، ثم لاحقًا كان واليًا على العراق والمشرق للخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٣) الطبري، التاريخ، ٤/ ١١٦.

الخاتمة:

عـرض البحث أقوال المصادر المبكِّرة في نشـأة الكتابة العربية وعلى يدي مـن بـدأت، وأين كان ذلك، وعقب ذلـك بآراء الدارسـين المحدثين بعضهم اسـتند إلى النقوش المكتشـفة وجُلها في أكثر من مكانٍ ببلاد الشام، واختلفت آراؤهم في أصلها ومن أيِّ خط اشـتُقت؟ ثم طرَحَ البحث مقولة الواقدي ومن وافقه من علمائنا الأوائل بأنّ الإسـلام جاء وعددُ من يحسـنون الكتابة في مكة ويثـرب في حـدود ثلاثين رجلًا. اسـتقصى البحـث المعلومات مـن دواوين شـعراء حقبة ما قبل الإسـلام ومن الروايات المختلفـة وتراجم الصحابة التي فيها إشـاراتٌ إلى الكتابـة في كلٍّ من مكة والمدينة والطائـف، وكانت النتيجة التـي وصـل إليها البحث أنّ انتشـار الكتابـة في هذه المناطق أوسـعُ بكثير ممَّا حصرهـا فيـه الواقدي، وكان جُـلُّ من يُحسِـنون الكتابة والقـراءة من الرجال وقليـل من النسـاء، وأنّ كثرة وصـف الكتابة وأدواتها في الشـعر - وهو موجَّه إلـى عموم الناس - يدل على سَـعة معرفة الناس بهـا، إذ ليس من المعقول أن يذكر الشاعر في وصفه الكتابة وأدواتها وهي غير مفهومة لمتلقي أشعارهم. لا شـكّ أن البحث يحتاج إلى مزيدٍ من التقصي، الذي سـوف يكشف لاحقًا عن مزيد من الأدلة، لكن مع ذلك الانتشار النسبي تبقى الأمِّية فاشيةً في مجتمعات الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ لأن طبيعة الحياة بمعاملاتها التجارية المتواضعة ومستواها الحضاري المتدنِّي لم تكن القراءة والكتابة من ضروراتها.